السلطنة السنّارية ودورها في الحياة الإسلاميّة السّودانية

د. مهدي رزق الله أحمد

مدخل:

إن صلات السودان بجيرانه، خاصة مصر وبلاد العرب، قديمة جداً، إذ أن المتتبع لخيوط تلك الصلات مع مصر يجدها منذ عهد الأسرات المصرية الأولى، ثم تطورت حتى كاد السودان أن يكون مصرياً في معظم جذوره ومظاهره الحضارية في عصر الدولة المصرية الحديثة(١).

وقد كانت التجارة وأهمية تأمين طرقها على رأس أسباب الاحتكاك، ومن ثم التسرب الحضاري المصري إلى الدويلات التي قامت في شمال السودان، مثل دويلة كوش(٢) اتخذت مروي عاصمة لها بعد نبتة(٣).

وعندما سقطت دويلة كوش في نحو منتصف القرن الثالث الميلادي، تلا ذلك فترة غموض دخل السودان بعدها في نفوذ المسيحية. إذ أنه بحكم العلاقات التاريخية بين مصر والسودان انفتح المجال أمام المسيحية حتى غدا لها ثلاث دويلات في شمالي السودان، الأولى: «نوباديا» أو النوبة وعاصمتها فرس، والثانية «المقرة» وعاصمتها دنقلة العجوز، والثالثة «علوة» وعاصمتها سوبا(٤).

ولظروف عديدة مجتمعة، على رأسها الوجود العربي الإسلامي في مصر وتغلغل العروبة والإسلام إلى السودان من الشرق والشمال، واحتكاك أقرب تلك الدويلات إلى مصر، مع الحكام المسلمين هناك، انفصلت تلك الدويلات عن منبعها، وأصبحت لقمة سائغة لتبتلعها ببطء شديد القوى العربية الزاحفة في موجات متلاحقة من منطقة البجة بشرقي السودان ومن مصر ومن بقية شمالي إفريقية، ولم تجدها المقاومة لهذا الزحف مدى تسعة قرون(٥).

أما بالنسبة لصلات السودان ببلاد العرب، فقد كانت أيضاً قديمة، فمثلاً، في القرنين

السابقين لميلاد المسيح عليه السلام، وصلت السودان جماعات صغيرة من حِمْيَر وأقامت على النيل الأزرق ونهر عطبرة وربما تقدمت شمالاً، ودخلت النوبة وغرباً في كردفان ودارفور وما وراء ذلك(٦).

إن دخول العرب إلى السودان قبل الإسلام، لم يكن له كبير أثر أولاً، لأنهم دخلوا في جماعات صغيرة، انحصر أثرها في الأجزاء الشرقية غالباً، وثانياً، لأنهم لم يسهموا بثقافة أو دين كما فعلوا في الإسلام، أما دخولهم إليه في الفترة الإسلامية، فهو مرحلة مهمة من مراحل تاريخ السودان الحضاري، أضافت إلى أجناس البلاد الأصلية عنصراً دموياً جديداً، وأمدته بالدين الإسلامي واللغة العربية والثقافة الإسلامية، وحوّلت اتجاه البلاد السياسي والفكري والاجتماعي، وربطته بالعالم الإسلامي.

ومما مهد لازدياد تلك الهجرة بعد الإسلام، اتساع نطاق التجارة في ظل الإسلام ووجود الحماية التي تكفلها الدولة الإسلامية للقبائل التي تريد الهجرة من الشمال إلى الجنوب، وكان من البدهي أن يمتد الدين الإسلامي من مصر بالذات إلى السودان.

لقد اتجهت سياسة المسلمين، منذ سنة ٦٤١م(٧)، بعد أن تم لهم فتح مصر مباشرة، إلى فتح بلاد النوبة (السودان) للمحافظة على الحدود الجنوبية لمصر، وتأمين الطرق التجارية البرية والبحرية التي تربط مصر والسودان(٨). فعندما أرسل عمرو بن العاص جيشاً بقيادة عقبة بن نافع لفتح النوبة سنة ٦٤١م كانت الخسائر فادحة لشدة المقاومة النوبية ومهارة النوبة في الرمي بالسهام، حتى أطلق عليهم المؤرخون العرب اسم «رماة الحدق»، ولذا لم يتمكن المسلمون من التوغل جنوباً فهادنوا النوبة(٩).

وعندما علم النوبيون بعزل عمرو بن العاص ووفاة الخليفة عمر، خرقوا الهدنة وهاجموا صعيد مصر، فتصدى لهم عبد الله بن أبي السرح، وطاردهم حتى عاصمة المقرة سنة ٦٥٢م(١٠)، وأجبرهم على الصلح الذي عرف في التاريخ بـ «البقط»(١١) والذي يتلخص في تسهيل تبادل التجارة وحفظ المسجد الذي بناه المسلمون في دنقلة ــ عاصمة النوبة ــ ودفع بقط مقداره ثلثمائة وستين رأساً من الرقيق كل عام. واستمرت المعاهدة سارية المفعول لمدة ستة قرون. تمكن المسلمون في ضوئها من ممارسة التجارة والدعوة الإسلامية بحرية(١٢).

وبسيطرة المسلمين على مصر وهنت الصلات الروحية النصرانية بين مصر والنوبة وزاد تدفق العرب المسلمين على أقاليم السودان المختلفة . ونزح كثير من النوبيين السودانيين إلى مصر للخدمة في الجيش(١٣) والمجالات الأخرى، ونتيجة لهذه التفاعلات والعلاقات انتشر الإسلام.

وفي عهد المماليك، أخضع الظاهر بيبرس مملكة المقرة النوبية سنة ١٢٧٦م وعقد معهم معاهدة، أصبح صاحب النوبة، بموجبها، أحد رعايا صاحب مصر، ومنذ ذلك الوقت ضعفت هذه الدولة السودانية(١٤).

ولسياسة المماليك غير الودية مع القبائل العربية فقد اضطر معظمهم للنزوح إلى السودان، فبذلك زاد عدد العرب بالسودان(١٥)، وضغطوا على مملكة النوبة، فسالمتهم، وأصهر أهلها إليهم، ووصل العرب إلى السلطة، لأن النوبة يورثون ملكهم للبنات إذا عز الولد(١٦)، وبذلك تعربت الدولة وتأسلمت بمرور السنين، وسقطت نهائياً في أيدي العرب المسلمين في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي(١٧). وزادت الهجرات العربية إلى السودان، وأكبرها هجرة قبيلة جهينة، وهي واحدة من خليط هائل من القبائل العدنانية والقحطانية وبطونها المختلفة التي تجمعت في أنحاء النوبة الشمالية، على حين تجمع خليط آخر منها عقب سقوط دنقلة في أرض البطانة، والجزيرة الغنية بمراعيها، ونشأت إثر ذلك بعض المهاجر العربية قرب سنار الحالية(١٨)، و لم تمض فترة طويلة من الزمان حتى لحق من كان بالشمال بمن استقر بالجزيرة لغنى مراعي الجزيرة وفقر مراعي النوبة الشمالية(١٩) و لم يلقوا مقاومة تذكر من قبل دولة علوة، ولذلك تيسرت مصاهرتهم مع السكان الأصليين بالجزيرة(٢٠).

وفي شرق السودان، حدث الشيء نفسه، إذ تسربت المسيحية إلى قبائل البجة، ولكن بصورة ضئيلة، ثم تسرب، إليهم الإسلام، وعاش الإسلام جنباً إلى جنب مع المسيحية والوثنية لفترة، ثم غلبت الحضارة الإسلامية على المنطقة في النهاية(٢١).

إن القبائل العربية التي خالطت البجة، لم تذب جميعاً في المجتمع البجاوي بل غادر بعضهـا بلاد البجة إلى منطقة نهر عطبرة ونهر النيل. والتقوا في هجرتهم من الشرق

إلى الغرب بتيار القبائل الذي قدم من الشمال في القرن الخامس عشر الميلادي وهاجر بعضهم إلى كردفان واختلطوا بالسكان المحليين في أواخر القرن السادس عشر الميلادي.

أمّا إقليم غربي السودان فمنذ جاءته تيارات عربية إسلامية عبر درب الأربعين ، على رأسها قبائل جهينة(٢٢) ذاب ذلك الإقليم في هذه التيارات العربية الإسلامية نهائياً .

وهكذا أطبق العرب المسلمون على السودان من كل الجهات. وكانت النتيجة الحتمية أنه منذ القرن الخامس عشر الميلادي ــ على الأقل ــ ظهرت عدة ممالك ومشيخات إسلامية في حوض النيل الأوسط(٢٣) ، وكان لظهورها أثر خطير في تطور الحياة الاجتماعية والسياسية، مما ساعد على زوال بعض الأسس التي قامت عليها المملكة المسيحية في علوة(٢٤) ، ومن ثم تسرب الإسلام بقوته الروحية إلى مملكة علوة(٢٥) .

ومن أهم هذه التطورات السياسية أن الحكم أصبح وراثياً في بيت شيخ القبيلة، وتكونت من مجموعات القبائل ــ في الإقليم الذي اتخذته داراً لها ــ زعامات إقليمية يتولاها شيخ المشايخ، وهو عادة شيخ أقوى قبيلة في المجموعة وعرف باسم الملك أو المانجل، وبهذا اختفى نظام الوراثة القديم، أي نظام توارث العرش عن طريق نسب الأم(٢٦).

ولعل أهم أثر لقيام هذه المشيخات الإسلامية في حوض النيل الأوسط هو ازدياد انتشار الإسلام بين كثير من أهل البلاد، وسقوط دولة المسيحية في سوبا، ودخول السودان في مرحلة جديدة من تاريخه.

قيام دولة سنار الاتحادية

على الرغم من تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في هذا الجزء من حوض النيل، فإن الأحوال لم تستقر تماماً، وذلك لوجود نزاعات بين القبائل العربية حول مواطن الرعي من ناحية وبينها وبين الوطنيين من ناحية أخرى(٢٧) فانعكس ذلك على تدهور التجارة بين مصر والسودان وبالتالي تدهور الحالة الاقتصادية.

ولهذه الاسباب وغيرها ظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية تخضع لها شتى الجماعات والقبائل المتنازعة لإقرار الأمن وحماية الطرق التجارية القديمة(٢٨).

وبعد فترة اكتنف الغموض فيها أحوال علوة ، إذ بنا فجأة نسمع من الروايات المحلية التي دونت في أوائل القرن التاسع عشر ، عن تحالف عمارة دونقس ، زعيم قبيلة الفونج(٢٩) ، مع عبد الله جماع القريناتي ، زعيم قبيلة القواسمة(٣٠) وقادهما هذا التحالف إلى قتال ملك علوة وتغلبًا عليه ، وظهرت دولة سنار الاتحادية الإسلامية فجأة في أرض السودان وعرفت فيما بعد بالسلطنة الزرقاء .

ويذكر ود ضيف الله(٣١) أن قيام هذه الدولة كان في سنة عشر بعد التسعمائة وأن مدينة سنار، خطَّها الملك عمارة دونقس، وأن مدينة أربجي(٣٢) خطت قبلها بثلاثين سنة.

ويقول ود ضيف الله(٣٣): (ولم تشتهر في تلك البلاد مدرسة ولا قرآن، يقال إن الرجل يطلّق المرأة ويتزوجها غيره في نهاره من غير عدة، حتى قدم الشيخ محمد راجل القصير العركي من مصر وعلّم الناس العدة، وسكن البحر الأبيض...).

يشير هذا النص إلى أن المسلمين في بلاد علوة حين قامت السلطنة الزرقاء كانوا يجهلون بعض أمور دينهم ومن ذلك زواجهم المطلقة قبل انقضاء عدتها، والسبب الراجح في ذلك أن معظم العرب الذين انساحوا في إقليم علوة كانوا من البدو ولم يكن من بينهم علماء فقهاء. ويذكر كاتب الشونة(٣٤) مجيء العبدلاب إلى الفونج في مقرهم بجبل مويه، والاتفاق على كيفية إسقاط ملك علوة وعلى أن يكون عمارة الملك في علوة، لكونه الأكبر، وأن يحكم عبد الله جماع الإقليم الغربي لعلوة. وتم لهما ما أرادا، فاختط الفونج مدينة سنار ، وجعلوها عاصمة لهم سنة ٩١٠هـ ، واختط العبدلاب مدينة قرى وجعلوها عاصمة ملكهم.

إن مجيء العبدلاب إلى الفونج في مقرهم يدل على أن عمارة كان ملكاً على قومه وعلى دولة أسست ومارست سلطنة منفردة على أراضيها، وبذلك فلا غرابة أن يكون ملك الفونج هو المقدم على ملك العبدلاب(٣٥).

ومن الآثار التي ترتَّبت على سقوط علوة تفرق النوبة في جهات شتى، منها فازوغلي وكردفان، ولم يبق منهم إلا القليل يدينون بدين الإسلام، وتفرقوا وسط العرب المقيمين ببلادهم، وأقام قليل منهم في ذلك الزمان بجهة شندي وجريف قمر، وتعرَّبوا، وتناسلوا مع العرب حتى شابهت ألوانهم ألوان العرب(٣٦).

أهداف الحلف (الاتحاد)

إن الاتحاد الفونجي العبدلابي قد أملته ضرورات إسلامية، فهو تحالف للجهاد في سبيل الإسلام ومدافعة مسيحي علوة والقضاء عليهم إذا استطاعوا لذلك سبيلاً.

كما أملته ظروف اقتصادية، فقد تدهورت العلاقات بين النوبة السفلى ومصر، للعداوة التقليدية بين العرب زعماء المشيخات في النوبة وبين المماليك في مصر، فاضطرت هذه الإمارات والمشيخات إلى الاتجاه صوب الجنوب، والاتصال بالسلطان عمارة، الذي كان مسيطراً على تجارة ذلك القطاع الذي كان مركزاً لتتجمع فيه التجارة، وتنطلق صوب الشرق(٣٧).

ولأهمية التجارة كان لابد من المحافظة على هذا المورد المهم والذي يعتبر من مقومات قيام الدول في ذلك الحين، وبذلك لابد أن تكون السلطنة قد قامت من أجل المحافظة على تجارة القوافل التي تهم زعيم الفونج وزعيم العبدلاب، بين قبائل رعوية متنقلة شرسة. فتولى عبد الله جماع إخضاع قبائل الجعليين والمجاذيب والميرفاب والرباطاب والشايقية والدناقلة. وبذلك نراه قد جمع كل القبائل العربية، وفي هذا يقول الشاعر مخاطباً ابن جماع المدعو عجيب المانجلك:

وأبوك جماع الذي جمعت له   غرر الفضائل طاهر الأردان
جمع الإله به العروبة: وهو ذا   شيخ العروبة في ربا السودان

وبذلك يكون قد شارك جده قصي في تجميع قبائل قريش والعرب قبل الإسلام، وقال فيه الشاعر:

أبوكم قصي من يسمى مجمعاً   به جمع الله القبائل من فهر

أما عمارة فقد تولى إخضاع القبائل التي تغطي شرق النيل الأزرق ووديانه والقضارف والبطانة. وكان هذا الإخضاع لابد منه حتى يتسنى للسلطة أن تمارس تنظيم التجارة المهمة التي كانت سائدة في هذه المنطقة.

ومما تجدر ملاحظته بهذا الصدد، أن نجد العاصمة السياسية الأولى سنار، تقع في مكان استراتيجي كنقطة التقاء لعدة طرق تجارية. فموقعها على الطرق النيلية، والقوافل

أضفت عليها تلك الأهمية، حيث يحدث تبادل السلع الواردة من البقاع الأفريقية المختلفة، ومن مصر، ومن الشرق الأقصى، عبر سواكن ومصوع وأثيوبيا.

إذن، فهذا الاتحاد مبنى على صداقات ومعاملات تجارية بين أغنى أفراد المجموعات السودانية، عبد الله جماع زعيم العبدلاب، وعمارة دونقس زعيم الفونج، حيث ظهرا كمجموعتين قويتين في منطقة النيل الأزرق وحدود الحبشة.

وأكبر دليل على ما قلناه هو قيام هذه السلطنة على اللامركزية في الحكم وقد تميز الاتحاد بين المجموعات الإقليمية الذي تزعمه السلطان السناري بتقاليد الجمهورية التجارية، على النحو الذي كان متعارفاً عليه في الجزيرة العربية، مع ما دخل عليه من تعديلات اقتبست من مواطن الهجرات وقبيل انتقال البيت السلطاني إلى حوض النيل الأزرق.

وكانت التقاليد الخاصة بالجمهورية التجارية تربط بين الجماعات من أصحاب المصلحة الاقتصادية، الذين يوجهون بالغ اهتمامهم نحو استثمار المال في مناطق معينة، وكان طبيعياً أن يمتد نفوذهم إلى المناطق التي تقوم على الطرق التجارية، بين مراكز تجمع السلع ومراكز التسويق، لتأمين المواصلات وتقديم ما تحتاج إليه القوافل أو السفن من مؤن ومعونة(٣٨).

وقد قامت تنظيمات الإدارة في المشيخات التي دخل زعماؤها في الاتحاد السناري في نطاق يكفل تأمين المصلحة التجارية فقط وترك كل شيء عدا ذلك يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة، لهذا نجد أن السلطنة السنارية بوصفها زعيمة الجمهورية التجارية، لم تحاول القيام بتنظيم جهاز للحكم، على أركان تشمل جميع نواحي النشاط(٣٩).

ولو لم يقم هذا الاتحاد السناري وتركت كل مشيخة صغيرة تقوم بإدارة نفسها لكانت النتيجة الحتمية تفرق الكلمة وزوال كل شيء. ولا غرو، فقد رأينا كيف أن نهاية الاتحاد السناري، كانت بسبب التفكك والتمزق والصراع والحركات الاستغلالية، ذلك مما يجعلنا نقرر باطمئنان أن الاتحاد السناري قد جلب إلى البلاد فترة من الاستقرار والأمن والطمأنينة، نمت في ضوئه حضارة عربية سودانية، وقامت على أثره أول دولة إسلامية عربية في السودان، تبنَّت الحضارة الإسلامية وساهمت

في الحضارة الإسلامية العريضة. ولو تركت القبائل البدوية الوافدة للسودان تعيش كما كان رجالها في الجزيرة العربية لما تمخض ذلك المجتمع البدوي عن دولة حضارية تتمتع بكل مقومات الدولة الحضارية في نطاق الإسلام، وارتفع صيتها بين الدول الإسلامية، لا سيما عندما اهتمت بالحج والحجاج، وتعبيد الطرق لأداء فريضة الحج وراحة الحجاج في الأراضي المقدسة، وذلك عندما رأى الشيخ عجيب المشقة التي كان الحجاج السودانيون يجدونها في السكن غير المريح أثناء إقامتهم لأداء الفريضة، صمم على إقامة منازل خاصة بهم وجعلها وقفاً في سبيل الله، فقيل إنه بنى في المدينة المنورة أبنية راقية تتكون من عدد كبير من السرايات حول المسجد النبوي. وكانت مأوى الحجيج السوداني وآثارها لا تزال باقية هناك. كما أمكن الحصول على صورة مصورة للمكتوب الذي بموجبه تم تسجيل ذلك الوقف(٤٠). وقيل كذلك إنه بنى في مكة المكرمة أبنية لإقامة الحجاج من السودانيين، كما شارك كعادة الملوك في ذلك الزمان في كثير من التحسينات والزينات التي أجريت على الأماكن الشريفة في الحرمين الشريفين، واستطاع بالفعل أن يبرز وجه بلاده، وأن يعلي من شأنها بين مختلف وفود الأقطار الإسلامية. وكان ذلك من أشهر الأعوام بالنسبة لوفود الحجاج السودانيين في بلاد الحجاز(٤١).

مجالات إسهام دولة سنار الاتحادية في الحياة الإسلامية

١ ـ في مجال نشر الإسلام ومواجهة التحديات العسكرية:

ففي مجال الدعوة الإسلامية والجهاد، نرى دولة الاتحاد منذ فجرها الأول قد ظهرت في مظهر إسلامي، فقد استهلت حياتها الأولى مساهمة في حركة الجهاد الإسلامي حين قضت على مملكة علوة المسيحية آخر عقبة في سبيل انتشار الإسلام، كما حاربت الشلك(٤٢) لنفس هذه الأغراض، بل شاركت في حركة الجهاد الإسلامي ضد الأحباش في القرن الثامن عشر الميلادي. وتبين أنها كانت على اتصال بالمسلمين في مصر لتحقيق هذا الغرض، إذ يروى أن لويس الرابع عشر، ملك فرنسا، أرسل سنة ١٧٠٣م هدايا فاخرة إلى ياسو ملك الحبشة مع مبعوث اسمه «لانواردي رول»، فرحل من مصر

في ١٩ يوليو سنة ١٧٠٤م قاصداً أن ينفذ إلى الحبشة، بطريق النيل فوصل سنار في آخر مايو سنة ١٧٠٥م، ومعه سبعة من الأتباع وخادم وترجمان وستون من الإبل محملة بالهدايا. دخل سنار وأقام فيها زمناً حتى جاءته الأخبار من مصر مشككة في حسن قصده، وأن البعثة ماضية لتدريب جيش الأحباش على الحرب الحديثة، فقاتلهم الفونج والعبدلاب. واشتبكوا في معارك مع الأحباش في عهد الملك بادي الرابع أبو شلوخ سنة ١٧٤٤م(٤٣)، وكانت جيوش الفونج والعبدلاب يقودها الأمين ود مسمار ود عجيب شيخ العبدلاب، وكان أمير الفرسان الشيخ محمد أبو لكيلك، كبير الهمج. وكان لهذا النصر دوي هائل في العالم الإسلامي المعاصر. بلغت هذه الأخبار مصر والشام والحجاز وتونس والقسطنطينية والهند(٤٤).

ولملوك سنار، وخاصة العبدلاب، بطولات نادرة في سبيل العقيدة الإسلامية والوحدة الوطنية. وأدبهم الشعبي المسجل يحفل بهذه البطولات وتلك الروح المعادية للكفار والتي برزت أول ما برزت في حربهم ضد ملوك العنج في موقعة قرى، التي تعتبر المعركة الفاصلة ضد مملكة علوة المسيحية، بعد المعركة الأولى في سوبا. وفي تلك المعركة الحاسمة قالت الشاعرة التي تسمى «الوصافة»، منشدة ومثيرة الحماسة في نفوس الجنود وقائدهم الشيخ عجيب المانجلك، خليفة أبيه عبد الله جماع، قالت:

شدوا له وركب فوق السبيبو أجر
ودقو له النحاس وهز ابفراطرن غر
لوعت الكفر يا حنظل القيزان المر
صندوق الأمان أنا بيك اتفشر
صمد الخيل عريس أمات جباها غر
وقلب الدود ـ العديلة يا ود القرين الحر(٤٥)

وقال شاعرهم، منشداً الشيخ عجيب المانجلك العبدلابي:

إمام أتى والناس في جاهلية وفي فترة لم تتصل بمدارك
فقاد جيوش الحق حرباً على العدى لينصر دين الله بين الممالك

وتتجلى في الشيخ عجيب المانجلك العبدلابي، الغيرة الشديدة على العقيدة، وثورته

على المرتدين من القبائل العربية ، فجرد لهم سيفه في شجاعة الأبطال ، فحارب قبيلة المناع البجاوية ، عندما خرجت عن سلطانه الديني وسلطان الدولة ، وقطعوا طريق الحج ، بقيادة أبنائه التسعة عشر فحاربهم الشيخ عجيب بلا هوادة . ولإعادة حكم الشرع فيهم ، عين الشيخ عجيب قاضياً ورعاً ، هو الشيخ ثابت الجعلي الشيعيد نابي . ولا تزال ذرية هذا الشيخ تتولى مكانة الريادة في قبائل شرقي السودان ، خاصة في آل بني عامر ويعرفون الآن باسم « الثابتاب » ، وبذلك مكّن الشيخ عجيب سلطانه في نصر كامل في حربه الأولى ، فشاع ذلك وذاع بين القبائل ، حتى امتدحه شاعرهم واصفاً دور المانجل العظيم وأبنائه في المعركة قائلاً :

العندو تسع عشر من صقور جماع
المثل أسود الخلا القماع
حق الطير فضلة الشكشك الرماع
كيف ينزل وقيع من ورا المناع

لم تكن هذه هي الحرب الوحيدة الدينية، بل إن ملوك سنار قد وجّهوا جهودهم إلى الحرب ابتغاء نشر راية الإسلام، وكان جهدهم منصرفاً إلى غربي النيل، حيث كانت الوثنية قائمة تتمنع في جبال دارفور وهضاب كردفان تحميها القبائل، كالشلوك(٤٦).

أما في مجال الدعوة الإسلامية بالوسائل السلمية فقد عملوا الكثير لأن طابع الدولة كانت تسوده الروح الإسلامية المتسامحة المتمثلة في أدعياء الصوفية(٤٧). ومن المعروف عن الدعوات الصوفية أن آخر ما تلجأ إليه الصوفية هو العنف إلا عند الضرورة القصوى كما حدث بالنسبة للدعوة السنوسية والدعوة التيجانية عندما حاربتا ضد الاستعمار، وفي السودان عندما ثار محمد أحمد المهدي على بعض الانحرافات الخطيرة في المجتمع الإسلامي. ففي هذا الجو عمل الفونج على تنشيط الدعوة الإسلامية واشتدت رغبتهم في النهضة بالدين، ومصداق ذلك تشجيعهم للجهود التي بذلها الفقيه بدوي البديري في جبال النوبة، والجهود التي قام بها الشيخ إسماعيل الوالي في جبال كندكرو وساهم في هذه الحركة الإسلامية الكبيرة الدعاة الوطنيون والوافدون من البلدان الإسلامية المختلفة، وتميز عهد بادي الثاني«أبو دقن» بالنشاط الاسلامي البالغ(٤٨).

٢ ــ في مجال نشر الثقافة الإسلامية بالتسرب:

ولا ننسى دور العلماء في نشر التعاليم الإسلامية وإرشاد الناس منذ تأسيس الدولة، وإكرام الحكام لهم، مما جعلهم يتوافدون على السودان من شتى الأقطار الإسلامية الأخرى، وكان الحكام يلجأون إليهم عند الملمات للتضرع إلى الله لإزالة المحن واتقاء شر الأعداء. وكان لهم دورهم كحمامات سلام في عهد الفوضى والانقسامات، يترددون بين الفرقاء لإتمام الصلح(٤٩). ولهذه الرسالات التي كانوا يؤدونها للمجتمع السوداني آنذاك، رفعهم المجتمع وأكرمهم واهتدى بهم، وظل الكثيرون يؤدون لهم فروض الإجلال والتبعية حتى بعد زوال هذه المسببات(٥٠). وارتفعوا بهم إلى مكان عال.

ولقوة أثر هؤلاء العلماء وخاصة أدعياء التصوف خرجت الزعامة الروحية من أيدي الحكام وأصبحت في أيديهم. فقد كانت البلاد قبل ظهور الدعوة الإسلامية ودخول العرب إليها يحكمها ملوك مؤهلون يملكون رقاب الشعب وما في حوزته، ولهم حرية التصرف الكامل في سكان المناطق التي يتولون الحكم عليها، وكان الملك هو الرئيس الديني كما هو الرئيس الدنيوي(٥١).

وهذه الفئة من الدعاة الصوفيين يمثلون الثقافة الدينية غير العلمية، وهي الثقافة التي كانت شائعة آنذاك في العالم الإسلامي، مثل الحجاز والعراق وبلاد المغرب، ومنها تسربت إلى دولة سنار على أيدي بعض الدعاة أو المواطنين الذين اتصلوا بمنابعها، وللسناريين صلات غير منقطعة بالحجاز لاسيما في موسم الحج، لطلب العلم على يد علماء الحرمين الشريفين، ثم أن بعض قادة الصوفية في الحجاز وبلاد المغرب قدموا إلى مملكة سنار، حيث طاب لهم فيها المقام(٥٢)، لترحيب السناريين بهم حكاماً ومحكومين. كما أن الحروب والانقسامات الداخلية التي سبقت عصر الفونج، أورثت في النفوس السنارية في هذا العهد رغبة شديدة في حياة الاستقرار، مما دعاهم إلى الاستجابة لدعوة أولئك المشايخ الذين ظهروا مع قيام المملكة الاتحادية للانتظام في سلك العبادة ونشر الثقافة الإسلامية(٥٣)، إن بعض أصول الطرق الصوفية في السودان ترجع إلى ما قبل قيام دولة سنار الاتحادية، ومثال ذلك الطريقة الشاذلية، إذ دخلت السودان على يد الشريف حمد أبي دنانة سنة ١٤٤٥م. ثم رسخت دعائمها زمن دولة سنار الاتحادية على يد الشيخ

خوجلي عبد الرحمن المتوفي سنة ١٧٤٣م، والذي كان أول أمره قادرياً ثم تحول شاذلياً. ويظهر أن هاتين الطريقتين عندما دخلتا بلاد سنار لم يكن لهما هيمنة مركزية منظمة، تضم الشيخ الأكبر وخلفاءه ومريديه، بل كانت الطريقة تسلك على يد شيوخ كثيرين منتشرين في أنحاء البلاد، مستقلين عن بعضهم البعض، إلا من حيث الرباط الروحي، الذي يربطهم جميعاً، باعتبارهم أتباع طريقة واحدة. ولم يدخل التنظيم على هذه الطرق إلا في القرن التاسع عشر الميلادي(٥٤).

وتتفاوت درجات هؤلاء الصوفية، من حيث المعرفة بالدين. ونلحظ ذلك من كلام صاحب الطبقات. ومثال ذلك أن بعضهم كان يرتكب أشياء تعد مخالفة للشرع «كالشيخ إبراهيم الخواص، فإنه يسرق ثياب الناس وهم في الحمام، ويلبسهن تحت جبته ويَقدِلُ(٥٥)، حتى يطلع عليه الناس فيضربونه ويأخذوهن منه»(٥٦)، ومنهم من كان يجمع بين الأختين» وأن الشيخ حمدا زوجاته يلحقن التسعين.... وتزوج بناتَ الشيخ بان النقا أبو يعقوب الاثنتين كلتومة وخادم الله...(٥٧).

وقد يكون السبب في هذا راجعاً إلى أن الناس في هذا الوقت (القرن العاشر الهجري) كانوا لا يزالون في مستوى ثقافي لم يتوفر فيه التعرف على حقيقة التعاليم الإسلامية وتدبر أصول الدين، مما جعلهم لا يميزون بين ما هو من أصل الدين وبين ما هو بدعة أو محرم، فيسهل على الناس التأثر بهم والافراط في حبهم لما يأتونه من أمور طريقة غير مألوفة، كادعاء التحدث بالغيب والكرامات وادعاء الطب الروحاني، لا سيما إذا جاء هذا عن طريق الدين(٥٨).

وكيفما كان الأمر فإن أثر الطرق الصوفية يبدو واضحاً في التقريب بين الجماعات الجنسية، ولأنها تعمل على إضعاف العصبية القبلية وإيجاد نوع من التعاون بين الجماعات المختلفة(٥٩)، ذلك أن المجتمع الصوفي كان نواته شيخ الطريقة، يجتمع إليه الناس ويصبحون تحت لواء الشيخ طريقة واحدة تجمع الدعوة شملهم على اختلاف قبائلهم وسلالاتهم، ويبدو لنا أن المصلحة المادية كانت وما زالت وراء ممارسات أدعياء التصوف، لأننا نرى معظمهم يحرص على أن يكون الناس على جهل بالكتاب والسنة... لقد سادت هذه المذاهب الصوفية وسيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية، وصار كثير من العلماء يعتقدون أن علم الظاهر لا يتم إلا بعلم

الباطن، بل اعتبر بعضهم هذا العلم الباطن الذي لا علم غيره(٦٠)، واستغلوا هذا الجانب أسوأ استغلال.

وتتفاوت هذه الطرق الدينية في عدد أتباعها ومدى خضوعهم لها ومدى استخدام زعمائها لهذه التبعية ذات الولاء الديني في ميادين السياسة والتكتلات الحزبية.. وبهذا تكونت ركائز المجتمع الحالي في السودان في عهد دولة سنار الاتحادية، حيث تفاعلت العادات والتقاليد القديمة مع مؤثرات النعرة القبلية والصوفية التي كانت تمثل الإسلام أسوأ تمثيل في ذلك الوقت(٦١) .

وبمرور الزمن، نلحظ أن الحياة الإسلامية الروحية، تتعمق جذورها في المجتمع السوداني، وذلك لوجود المجتمع الحضري والدولة السياسية المتماسكة والمنظمة.. فقد اشترك أمراء سنار والعبدلاب في حفظ سلامة قوافل الحجاج مما دفع الكثيرين لأداء فريضة الحج.. وعن طريق الحج كانت تتفتح مدارك الحجاج لمفهوم الإسلام. ولقد لعبت هذه المواسم أدواراً كبيرة في دعوة بعض العلماء لنشر الثقافة الإسلامية في السودان، وتقديم المساعدات العلمية ومن أولئك تاج الدين البهاري البغدادي.

وقد تميزت هذه المرحلة من تاريخ الثقافة الإسلامية بظهور طبقة من الفقهاء وبعض رجال الصوفية، الذين تعدوها بأساليب جديدة، قامت أساساً على شرح تفاصيل الدعوة ومبادئها للناس، ونهيهم عما يتعارض من عاداتهم ومعتقداتهم مع الإسلام. والواضح مما ذكرته بعض المصادر السودانية المختلفة أن هذه الحركة العلمية، كان مصدرها الحجاز وبلاد المغرب والعراق وغيرها . وفضلاً عن هؤلاء فإن كثيراً من أبناء دولة سنار، كانوا يرحلون إلى مصر، لتلقي العلم بالأزهر(٦٢)، ثم يعودون إلى بلادهم، ومنهم من كان يحج إلى بيت الله الحرام، ويتلقى العلم عن أحد فقهاء الحجاز، أو يأخذ الطريقة عن أحد مشائخ الطرق الصوفية ، وهؤلاء ، وأولئك جميعاً ، كان لهم أثر واضح في نشر الثقافة الإسلامية في سنار(٦٣) .

ومن الأمثلة الدالة على هذا، ما تذكره المصادر، بصدد هجرة بعض السناريين إلى مصر، في طلب العلم، أوائل القرن السادس عشر الميلادي، ومن بين هؤلاء محمود العركي، الذي أخذ العلم عن شمس الدين اللقاني(٦٤) وأخيه ناصر الدين(٦٥)، ثم عاد إلى وطنه فأسس سبع عشرة مدرسة ما بين الحسانية (توتي) وأليس (الكوة). ويعد محمود

العركي أول من طبق أحكام الدين الإسلامي في هذه المنطقة، بتفقيه الناس وأمرهم بالعدة(٦٦).

وامتاز النصف الثاني من القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) بازدهار الثقافة الإسلامية في دولة سنار، إذ أن عدداً من السناريين ارتحلوا إلى مصر لطلب العلم بالأزهر، ومن بين هؤلاء، أولاد جابر الأربعة (أحفاد غلام الله)، فأكبرهم إبراهيم المعروف بالبولاد، تفقه على الشيخ محمد البنوفري، إمام المالكية في مصر(٦٧)، وأخذ عنه الفقه والأصول والنحو ثم عاد إلى مسقط رأسه، في أرض الشايقية، وكان أول من درس مختصر خليل(٦٨) في مملكة سنار. ومن إخوة إبراهيم الفقيه عبد الرحمن الذي نهج نهجه ورحل إلى الأزهر وتتلمذ على الشيخ البنوفري بعد أن تتلمذ على أخيه إبراهيم. وعندما عاد من مصر تولى التدريس بعد وفاة أخيه، ونبغ كأخيه. ومن أظهر إسهاماته في الحياة الإسلامية ببلاده انشائه ثلاثة مساجد. وكان يدرّس في كل واحد منها أربعة شهور. ويروى أنه درس مختصر خليل أربعين مرة في هذه المساجد(٦٩).

وممن تتلمذ عليه من المشايخ: عبد الله بن دفع الله العركي الذي نشر علم أستاذه في أواسط الجزيرة وولى القضاء، ودرس في المدينة المنورة، وعبد الرحمن بن مشيخ النويري، الذي ولى القضاء في عهد الشيخ عجيب، ويعقوب ابن الشيخ بانقا الضرير،... والمسلمي ولد أبي ونيسة والفقيه الحاج لقاني ومحمد بن عيسى سوار الذهب وإبراهيم ابن أم رابعة(٧٠).

وقد نشر هؤلاء علم شيخهم في ربوع الدولة السنارية. ومنهم من تردد على مصر من وقت إلى آخر، للاتصال بعلمائها، كما فعل الأخ الثالث لابناء جابر إسماعيل، الذي أجازه الشيخ البنوفري كذلك وعاد ليتولى التدريس بعد وفاة أخيه عبد الرحمن. وأسهمت فاطمة بنت جابر ــ أخت أولاد جابر الاربعة ــ في نشر العلم أيضاً، إذ كانت لا تقل عنهم في المعرفة(٧١)، وخرج من بيتها عالماً، ابنها محمد بن سرحان، المشهور بـ «صغيرون»، والذي رحل إلى مصر في طلب العلم، وتتلمذ كأخواله على البنوفرى، وعاد لينشر علمه في بلاد الجعليين، التي أنشأ بها مسجداً، أضحى معهداً يؤمه الطلاب(٧٢). وممن نبغ من تلاميذه ابنه الزين(٧٣) والشيخ على ود برى(٧٤) وهما

ممن تتلمذ عليهما الشيخ أرباب بن عون المشهور بـ «أرباب العقائد»، المتوفى سنة ١١٠٢هـ/١٦٩١م. بلغ عدد تلاميذ الشيخ أرباب أكثر من ألف طالب، من بينهم طلاب من بلاد برنو. وألَّف كتاباً في أركان الإيمان سماه «الجواهر». ومن تلاميذه شيوخ الإسلام: الحاج خوجلي عبد الرحمن وحمد ود أم مريوم وحمد ود حتيك ومحمد ضيف الله وهارون ولد أبي حصى وفرح ود تكتوك والقرشي الصليحابي وغيرهم(٧٥).

ومن تتلمذ على البنوفرى ــ أيضاً ــ واسهم في الحياة التعليمية بالدولة السنارية في منطقة النيل الأبيض: (١) الشيخ عبد الرحمن حمدتو الخطيب(٧٦) وقد تتلمذ عليه علماء أجلاء، أمثال: عبد الله الأغبش، الذي أنشأ مسجداً في بلده بربر(٧٧)، ما زال قائماً، وابراهيم بن عبودي المشهور بـ «الفرضى» لتمكنه من علم الفرائض، وتأليفه حاشية عرفت ــ بـ «الفرضية»(٧٨).

(٢) الشيخ عبد الرحمن بن ابراهيم بن أبي ملاح الكناني، والد الشيخ خوجلي أبو الجاز، عالم توتى المشهور بـ «أزرق توتى»، وعبد الرحمن ممن تتلمذ على الأجهوري في مصر(٧٩).

(٣) الشيخ القاضي على ود عشيب، تلميذ البنوفرى(٨٠).

(٤) الشيخ محمد جمال الدين، المشهور بـ «حلاوي»، الذي اشتهر بالفتوى(٨١).

ويلحظ من سير هؤلاء العلماء أن المدن والقرى قد نشأت حولهم وأن بيوتاً دينية معينة قد تولت تأسيس المعاهد والمساجد وأيواء الطلاب الوافدين عليها ونشر التعليم في البلاد، ومازالت آثار هذه الأسر باقية في بلاد الشايقية وبربر والدامر وشندي وتوتى والعليفون وكترانج وأبي حراز وأم ضوبان وغيرها(٨٢) وغدت بلاد الشايقية مقصد الطلاب من أنحاء مختلفة في الدولة السنارية في منتصف القرن السادس عشر(٨٣).

وحوالي سنة ٩٥٠هـ (١٥٤٣م) قدم من مصر الشيخ محمد القناوي(٨٤) المصري الأزهري الثقافة، تلميذ الشيخين سالم السنهوري(٨٥) ويوسف بن عبد الباقي الزرقاني(٨٦) ودخل بربر وأربجي وسنار، غير انه فضل سكنى بربر وبنى بها مسجداً ليكون معهداً لتدريس الرسالة(٨٧) والعقائد(٨٨) والنحو(٨٦) وسائر العلوم، وأمَّه الطلاب من سائر أنحاء الدولة، وولي القضاء وباشره بعفة ونزاهة(٩٠) وكان هدفه نشر العلم

احتساباً. وتخرَّج على يديه عدد من أبناء بربر وغيرهم، منهم حفيده الشيخ المضوي محمد ابن أكداوي، إذ أخذ من جده علم الكلام والفقه والنحو(٩١) وقام بتدريسها مع غيرها في شندي، وبلغ طلابه الثلثمائة، والشيخ محمد بن عيسى بن صالح البديري المشهور بسوار الذهب من أهل دنقلة والذي قرأ خليلاً (مختصر خليل) على يد أبيه عيسى وقرأ العقائد والمنطق وعلوم القرآن على الشيخ المصري، وأخذ عنه علم التصوف، وانتشر علمه في جزيرة سنار وممن أخذ عنه علم التوحيد الفقيه حسن أبو شعر شيخ أولاد بري وممن أخذ عنه القرآن واحكامه الشيخ عيسى ولد كنو وعبد الله الأغبش والد الغبش(٩٢).

وفي هذا الوقت أيضاً قدم التلمساني المغربي على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب(٩٣).

والواضح من دراسة أولئك الرواد أن المصدر الأساسي لهذه الثقافة الإسلامية هو مصر(٩٤).

وفي حوالي سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٣م، قدم إلى السودان من مصر العالم المصري الأزهري الشيخ محمد بن علي بن قرم الكيماني. زار أربجي وسنار ثم استقر ببربر. ويقال إنه أول من درس المذهب الشافعي في السودان. تخرج على يديه عدة مشايخ، منهم عبد الله العركي والقاضي دشين وإبراهيم الفرضي(٩٥).

إن العلماء الذين أسهموا في الحياة الإسلامية في جميع مظاهرها كثيرون وهم موضوع كتاب الشيخ ود ضيف الله. وإن هؤلاء الذين ذكرناهم على سبيل المثال وليس الحصر.

كان ملوك سنار يحرصون على حسن الصلة بمصر، ويحاولون الانتفاع بعلمائها وفقهائها، وقد رويت في ذلك قصائد كثيرة، منها ما أشار إلى أن الملك بادي أبا ذين (١٦٤٣م ـــ ١٦٧٨م) كان يرسل الهدايا إلى علماء مصر حتى مدحه بعض شعرائهم بقصائد جاء في إحداها:

أيا راكباً يسري على متن ضامر   إلى صاحب العلياء والجود والبر
لك الخير إن وافيت سنار قف بها   وقوف محب وانتهز فرصة الدهر

واهد سلاماً عطّر الكون نشره   ألذ من الماء المسلسل والقطر
أيا حضرة السلطان والملك الذي   حمى بَيْضَةَ الإسلام بالبِيْضِ والسُّمْرِ
هو الملك المنصور بادي الذي له   مدائح قد جلت عن العدّ والحصر(٩٦)

ومهما يكن من قوة هذه الأبيات أو ضعفها، فهي دليل على صلة دولة سنار بمصر، ودليل آخر على أن بادى هذا كان عادلاً ومصلحاً.

ومن الملاحظ هنا أيضاً أن الأثر المصري يتميز عن غيره بأنه ذو طابع علمي في معظمه. فإن أولئك الذين أخذوا عن علماء الأزهر «بالمباشرة» أو الواسطة اتجهوا إلى تعليم الناس الفقه والتوحيد واللغة وغيرها من العلوم، على حين أن الطابع الصوفي أو الصوفي العلمي معاً كان غالباً على تعليم ذوي الثقافة الحجازية والمغربية والعراقية(٩٧).

ويظهر أن دولة سنار كانت المركز العلمي الذي تتطلع إليه جميع مناطق السودان شرقاً وغرباً. ويظهر أن الذين كانوا ينبغون من المناطق النائية من العلماء، كانوا يرحلون إلى ملوك الفونج وزعمائهم، ويعيشون في جوارهم، حتى أن سلطنة دارفور نفسها، كانت تستعين بفقهاء جزيرة سنار لنشر العلم في ربوعها(٩٨).

وإلى جانب أثر هؤلاء المتخصصين من الفقهاء وأدعياء التصوف، فهناك جماعة أخرى ذات أهمية أدت دوراً كبيراً في خدمة الدعوة إلى الإسلام في السودان، وهم التجار.

لقد كانت التجارة ومازالت لها الحظ الأوفر في مجال الدعوة إلى الإسلام في القارة الأفريقية بأسرها والقارة الآسيوية ، وفي تكوين الدولة وسقوطها(٩٩) .

ففي السودان، وفي عهد الدولة السنارية بالذات، كانت التجارة تمثل عصب الحياة الاقتصادية، وكانت طبقة التجار تمثل الطبقة التي تحظى باحترام الجميع، وروادها من وجوه القوم. وكانت التجارة تؤدي دوراً كبيراً في سياسة الدولة الخارجية التجارية الشديدة بين سنار والفور، ولما كانت الفور أشد بأساً وأقوى نفوذاً فالصراع الذي دار بين دولة الفور ودولة سنار كان مرده إلى التجارة والتنافس على هذا المورد. وقد تأثرت تقلي بحكم موقعها الإقليمي بالمنافسة التجارية الشديدة بين سنار والغور ، ولما كانت

الغور أشد بأساً وأقوى نفوذاً من سنار ، فإن تقلى اتجهت نحو تحسين علاقاتها مع الفور ، الأمر الذي أغضب جماعة الاتحاد السناري، وعلى ذلك فقد انتهز السلطان بادي على نحو ما جاء في الروايات المحلية، حادث تعرض ملك تقلى لتجارة خاصة بصديق له، فأرسل حملة للانتقام من تقلى، واستمر القتال بضعة أيام، وانتهى بصلح صارت تقلى بمقتضاه تدفع جزية سنوية لسنار، ولم يهتم الفور بنجدة تقلى، لأن اهتمامهم كان متجهاً نحو امتداد نفوذهم إلى دار الشايقية، وفتح الطريق التجاري مع حوض النيل، بعيداً عن المرور عبر منطقة تقلى(١٠٠) .

ولا مندوحة إذا قلنا أن من أسباب انتقال البيت الفونجي من شرقي السودان إلى وسطى السودان، كان لأسباب تتعلق بالتجارة(١٠١) .

ومن الأدلة على أهمية التجارة في سيادة الإسلام وحضارته طبيعة قيام دويلة الدامر أيام الدولة السنارية. فمدينة الدامر دويلة دينية على رأسها زعيم ديني يعرف بـ «الفكي» الكبير، ينال احترام رعاياه وجيرانه، فلا يتعرض لتجارته أحد خوفاً من سطوته وكراماته (١٠٢)، ولذلك قويت دويلته وأصبحت مركزاً ثقافياً هاماً، يقصده طلاب العلم من مناطق شتى مثل دارفور وكردفان وسنار (١٠٣). وكذلك مدينة شندي التي وقعت على طريق هام للقوافل التجارية، فأضحت سوقاً تجارياً هاماً ومركزاً ثقافياً بارزاً(١٠٤).

هذه الأمثلة بالاضافة إلى سنار نفسها، (وهي أعظمها)، وبربر وقرى وسواكن ومصوع، تعطينا دلالات واضحة على طبيعة تلك الجمهورية التجارية. ورحلة الرحالة السويسري (بوركهارت)(١٠٥)، لأجزاء الدولة السنارية تعطينا صورة عن الأوضاع الداخلية في هذه المنطقة، وعلاقاتها الخارجية في وقت قيامه بهذه الرحلة. فقد تعرض في حديثه لأنواع التنظيمات الاجتماعية الموجودة في الحواضر التي ذكرنا أمثلة لها، فذكر أن الأمر لا يعدو أن يكون شأن قبائل استقرت ونمت تجارتها على يد أسرة أو «بيت» منها، وفقدت هذه القبائل إلى حد ما، أصولها القبلية، واكتسبت شكل الخليط المكون من أصول مختلفة، وتناسوا في الحاضرة أصولهم وتشبهوا بأهل المدن. وبمرور الزمن — كما رأينا — اكتسبت هذه القبائل(١٠٦)، السيطرة السياسية، ثم تلا ذلك السيطرة الروحية، حيث أصبحت تحمل مشعل الضوء الروحي إلى كل الأجزاء وحيثما حطت رحالها كان ذلك يعني ذوبان العناصر المحلية فيها عنصرياً، أو كانت سبباً في تحول الناس

من الوثنية أو المسيحية إلى الإسلام، لا سيما وأن طبيعة الأشياء دائماً ما تجعل صاحب الحضارة المتطورة متفوقاً على غيره ومغناطيساً يجذب إليه ما حوله من العناصر.

هذا التفوق الذي يؤدي لبسط السيادة على جماعة من الناس، قد يرجع لاختلاف مادي، كأن تكون الجماعة غنية، بماشيتها أو رجالها. وباستقرار العرب تطور النظام الاقتصادي للبلاد، فمن العرب من استمر على حياة البداوة والرعي كما هي الحال حتى اليوم، ومنهم من استقر بجوار النيل واستغل الأرض في الزراعة، ومنهم من زاول التجارة مع البلاد المجاورة في أفريقية ومع الجزيرة العربية وغيرها(١٠٧).

في أسواق تلك المدن، كانت الأفكار تتبادل مع السلع، دون تخطيط يذكر، ووجدت بذلك الدعوة الإسلامية مجالاً رحباً تنطلق منه، فلا عجب إذا رأينا إسلام المدن أقوى من إسلام البادية في جميع الأزمنة والأمكنة، ولا يمكن أن نشطط ونقول إن التجارة هي السبب الوحيد، ولكن نقول إن الاستقرار والعمران من دواعي رقي الحضارة سواء المادية أم الفكرية، أما توجيه هذه الحياة الفكرية إلى طريق الله، فهذا مما تساعد عليه العلاقات التجارية إذ أن التجار المسلمين يختلطون في الأسواق مع غير الدينيين أو شبه الوثنيين فيحببونهم في الإسلام، وخاصة أن التجار دائماً ما كانوا يحطون رحالهم في المدن لمدد طويلة، وقد لمسنا ذلك في وصف الرحالة بوركهارت لهذه التجارة. فالإسلام ينتشر بمحاذاة طرق التجارة ومراكزها حيث يوجد الفقهاء أيضاً، ويجتذب إليه أفراد القبائل الرحل الموجودين خارج نطاق القبيلة، ولا يؤثر كثيراً على أفراد المستوطنة الزراعيين إلا بعد جهود. فالإسلام والتجارة شيئان متحالفان برباط وثيق، ولذلك فاز الإسلام عن طريق مراكزه التجارية(١٠٨).

ومما لا شك فيه أيضاً أنه كلما قربت المنطقة من مراكز القوافل ومراكز الإشعاع الحضاري، كلما كانت أطول باعاً في مجال نقل التراث الحضاري الوافد المتفوق. وعلى ضوء هذا القول نلحظ قيام أول مدرسة لتدريس القرآن وعلومه بالسودان، كانت بأرض الشايقية، على يد أولاد جابر، وذلك لقرب أرض الشايقية من طريق القوافل التجارية الذاهبة إلى مصر الأزهر.

وكما قلنا، وكما هو ظاهر موقع السودان الوسيط بين بعض البلدان الإسلامية، هذا

الموقع حتّم تبادل الثقافة مع هذه الأقطار كما تبودلت السلع والمتاجر وكان كل قطر من الأقطار المجاورة يحمل إلى السودان حصيلته الثقافية وطابعة ومنهجه الخاص في الدراسة والتفكير، كما علمنا من طبيعة المدرسة الحجازية والمغربية والعراقية والمصرية. ومن الآثار التي لا تحصى تلك المجهودات العظيمة التي قام بها حكام الدولة السنارية في مجال تعبيد الطرق، مثل الشيخ عجيب، ليتسنى للحجاج وغيرهم أن يعبروا بسهولة، ويجذب إليه العناصر الوافدة من علماء الحجاز خاصة، فقد صمم الشيخ عجيب على تسهيل طريق الحج على أن يكون ذلك يربط منطقة الوسط في ضفاف النيل مع منطقة البحر الأحمر من ميناء سواكن، فاستجلب المانجلك كمية كبيرة من السمن صبًّا على الصخور العاتية وأشعل فيها النار، فتهشمت وأمكن شق الطريق من المكان الذي توجد عليه اليوم (محطة اربة). ولما وصل الطريق إلى سواكن كانت مشكلة الماء الصالح للشرب أكبر المشكلات، لذلك حفر المانجلك حفيراً ضخماً جنوبي بلدة سواكن كان يمتلىء بالماء في موسم الخريف، ويبقى كذلك حتى يحل الموسم الجديد، وأطلق عليه حفير شات. وظل مورداً لماء أهل سواكن إلى زمن طويل. وتقدم المانجل العظم أول وفود الحجاج التي سلكت الطريق الجديد وهناك في بلاد الحجاز أهدى الهدايا الثمينة للحكام ومشاهير العلماء(١٠٩). ولهذا الاهتمام البالغ بطرق الحج فلا عجب إذا رأينا أن الحج كان من العوامل الهامة في نشر الثقافة الإسلامية في دولة الاتحاد السناري. وبذلك تضافرت الطرق التجارية وطرق الحج مع التجار والحجاج لتقوم كل هذه العناصر بدور رئيس في بعث نوع من النشاط الثقافي المتجدد والمتسع القاعدة في هذه البلاد.

بالاضافة إلى ما ذكرنا، فهناك عنصر آخر أدى دوراً بارزاً في الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة الإسلامية وأثَّر بذلك في الحياة السودانية ألا وهم الفكيون (مفردها فكي)(١١٠)، ومن امثال هؤلاء ما رأيناه على رأس تنظيم الدويلة الدامرية، فقد كانت هناك طائفة من الفكيين تتجول في جبال النوبة، داعية للإسلام(١١١) بل أن ترمنجهام(١١٢) يجعل أثرهم أكبر من أثر التجار حين يذكر أنهم ينشئون مراكز إسلامية للعبادة في وسط شعب وثني، ويحظون في البداية بالترحاب ككتاب أحجبة: amulets ثم كمدرسين، ويتمكنون بوساطة الصلة اللغوية العربية من ربط الناس بحياة عريضة وجديدة.

ومن هؤلاء الفكيين الذين أصبح لهم شأن في تاريخ السودان الإسلامي، ذلك الزاهد الجعلي، مؤسس دولة تقلي حوالي عام ١٥٣٠م، الذي استطاع بورعه وحسن إسلامه أن يجذب قلوب الناس إليه، وأن يجعلهم يلتفون حوله، وأكثرهم من النوبة.. وسمع به الملك النوباوي وأحبه، وأصبح يأخذ برأيه في العديد من القضايا، وبخاصة بعد أن انشرح صدره للإسلام. وقد توثقت هذه الصلة إلى الحد الذي تزوج فيه هذا الفكي الزاهد من إحدى بنات الملك، وحينما أثمر هذا الزواج ولده المعروف بـ «جيلي أبو جريدة» كان كل شيء يستسلم للإسلام، خاصة إذا علمنا أن جيلي (١١٣)، قد ورث ملك جده، وأصبح حاكماً على البلاد حوالي عام ١٥٧٠م(١١٤). وقد وسَّع جيلي رقعة البلاد ـــ تحت الراية الإسلامية ـــ بحيث أصبحت تضم الإقليم الشرقي من الجبال ما بين (تالودي جنوباً، إلى أبي جِبل شمالاً)، ولقد شجع جيلي العرب المقيمين حول مملكته على أن يدخلوا بلاده ويختلطوا بالسكان ويصهروا إليهم، ليتسنى لهم جميعاً العمل على تعريب البلاد، والإسراع بنشر الإسلام في داخل الدولة وخارجها(١١٥).

وهكذا يمكن القول بأن القرن السادس عشر الميلادي كان عهد انتقال من المسيحية المستهدفة والوثنية البالية إلى الإسلام الحضاري على أيدي جماعة من العلماء الذين وفدوا من البلاد المجاورة أو من الوطنيين الذين أخذوا العلم عن أولئك العلماء الوافدين أو عن طريق التجار والدعاة والحجاج وغيرهم.. وإلى هؤلاء وأولئك يرجع الفضل في وضع الأسس التي قامت عليها الحركة العلمية والثقافية التي ازدهرت في مملكة سنار الاتحادية منذ القرن السادس عشر الميلادي، وهي تكاد تكون نفس الحركة العلمية والثقافية التي سادت العالم الإسلامي في ذلك الوقت، خاصة في بلدان شمالي أفريقية وغربها ومصر والحجاز، ومن أوضح الأدلة على ذلك أن الكتب التي تداولها الناس في هذه المناطق تكاد أن تكون واحدة، على رأسها: رسالة ابن أبي زيد القيرواني، مختصر خليل، المدونة المختلطة، عقائد السنوسي، الجزرية، دلائل الخيرات، الشاطبية، الأجرومية، الأخضري، ألفية ابن مالك، أم البراهين، البردة في المدائح النبوية،..الخ(١١٦).

المؤثرات المحلية في الحياة الإسلامية بدولة سنار الاتحادية:

كانت سلطة الحكام المباشرة محصورة في حدود قطاعه في حوض النيل الأزرق والبطانة، وقد تميز القطاع السناري في حوض النيل بصفته المسيحية، التي تأثرت كثيراً بالتقاليد والعقائد الدينية القديمة. وبقي الكثير من التقاليد والعادات الوثنية، الموروثة عن العهود القديمة وفي صورة أخرى حتى اليوم وقد تركت هذه التقاليد أثرها في الجماعات الإسلامية التي دخلت البلاد السودانية، فأضعفت تمسكهم بالشريعة حتى قيل إن الرجل صار يطلق امرأته ويعقبه عليها غيره من يومه بدون وفاء عدة(١١٧)، وهذه عادة متبعة في منطقة لامو في شرقي أفريقية. ويبدو أن التعاليم الدينية لم تستقر تماماً في بعض القلوب وأنها تأثرت بالظروف المحلية(١١٨).

إن هذا الجهل بتعاليم الدين، لم يجد التخطيط السليم لمحوه جميعاً، بل ظل بعضه حتى ظهور المهدي، ومطالبته بتطبيق الشريعة الإسلامية التي كان يجهلها بعض الناس، حتى ضج ذلك الشايقي من بعض تعاليم الإسلام ودعوة المهدي، فانشد قائلاً:

لامريسى(١١٩) ولا طنيـــبير(١٢٠)　　ولا تنباك(١٢١) ولا سنيجر(١٢٢)
وده كلـه مـن مهـديك الكـــبير　　وعقربا تطقك(١٢٣) يا حمد الخير(١٢٤)

وإذا رجعنا إلى التقاليد والعادات في أرض الجزيرة، وبعض المناطق من حوض وادي النيل، التي ورثها أهلها عن الماضي، نجد فيها دليلاً على أن مجموعات السكان المحلية قد احتفظت بتقاليدها الموروثة على الرغم من أنها قد دخلت في رعوية المشيخات التي أقامها العرب، والتي دخلت في اتحاد مع السلطنة السنارية، التي امتدت سيطرتها المباشرة على قسم كبير من مملكة علوة التي اختفت قبل السنوات الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي(١٢٥)

وفي مجال الحضارة عامة، نجد بعض امتزاج الحضارة السودانية المحلية والحضارة الإسلامية العربية الوافدة، فانبثقت حضارة إسلامية ذات طابع محلي، إسلامية الصورة والبيئة، سودانية الطابع والاتجاه.

فالدولة الاتحادية لم تهمل التقاليد الإسلامية، وما كان لها أن تفعل ذلك وهي مسلمة. عملت بالكتاب والسنة، وسعى هؤلاء الملوك جهدهم لتطبيق الشريعة الإسلامية في الأحوال الشخصية، وفي الأموال وفي جمع الزكاة والعشور وإقامة الحدود الشرعية على

الجناة(١٢٦)، ولكنهم مع هذا انتهجوا في نظم الحكم نهجاً محلياً صرفاً يتميز باللامركزية الصرفة، حين كانوا يسمحون للأمراء المحليين الاحتفاظ باستقلال ذاتي كامل(١٢٧) ويسمى كل أمير محلي «المانجل» وكلمة مانجل نفسها يرى ماكايكل أنها من أصل سوداني إن لم تكن قد استعيرت من الهمج، ثم طريقة التتويج ووسيلتها حين يحضر الأمير إلى سنار فيمنحه السلطان الككر(١٢٨) ويلبسه طاقية لها ذؤابتان عن اليمين والشمال محشوتان بالقطن كأنها قرنا فيل. إنها تقاليد نوبية قديمة شاعت في الممالك النوبية في الإقليم الواقع بين أسوان وكورسكو. وكان هؤلاء الملوك يلبسون الطاقية ذات القرنين والسواد(١٢٩) بل أبقى السناريون على تقاليد غريبة، أقرب إلى التقاليد الوثنية، في مراسيم ولاية الحكم، يظهر منها مدى الارتباط الوثيق بين الماضي البعيد والحاضر وتصور مدى ما أحرزته التقاليد الموروثة من إنتصار في صراعها مع التقاليد العربية الإسلامية(١٣٠).

فالسلطان لا تتم بيعته إلا إذا خضع لمراسيم معينة تتم على المراحل الآتية:

١ ــ مراحل الاختيار من بين المرشحين للعرش من أقرب الناس للحاكم السابق.

٢ ــ ينتقل إلى ساحة التتويج حيث الأمراء وأكابر الدولة فيلبس الطاقية ويسلم السيف ويجلس على الككر.

٣ ــ بعد إنتهاء مراسم التتويج يذهب السلطان إلى مكان معين في انتظار خروج دابة من الأرض يتفاءل بخروجها!!(١٣١).

وإذا ألقينا نظرة على الأسس التي تقدر عليها العوائد في الدولة نرى انعكاس العادات الموروثة على نظم هذه الدولة الإسلامية. مثال ذلك:

١ ــ السخرة: وهي ضريبة عامة حسب ثروة السكان المحليين. وكانت هذه الضريبة توزع بنسب معينة على خزانة السلطان وعلى الوزراء، وكان على هؤلاء الوزراء أن يوزعوا نصيباً للملوك والأرابيب والمشايخ، ثم على الأشخاص القائمين بخدمة السلطنة.

٢ ــ المترة: ضريبة خاصة لجيب السلطان.

٣ ــ المخلاية: ضريبة غلال تدفع لخيل فرسان السلطان.

٤ ــ نزل: حق للسلطان لمعاونته في تنقلاته، وهي واجب الضيافة.

٥ ــ العادة: حق للسلطان لتكاليف الظروف الخاصة من زواج وطهور وغير ذلك.

٦ ــ النار: ضريبة تحصل من القرى التي تلجأ إلى إحراق الحشائش ويعتبر القش المحروق كنوع من السماد للأرض.

٧ ــ العنة: ضريبة محلية تحصل على المنسوجات المحلية.

وهذه التقديرات للعوائد بلا شك موروثة عن عهود سحيقة، وتطورت خلالها إلى عدة مراحل حتى وصلت إلى الصورة التي أوضحناها(١٣٢).

وتميزت العلاقات بين الأهالي والزعيم المحلي بالطابع الديني الذي لا يختلف عما كانت عليه حال القرية في عصور الفراعنة، التي تركت رواسبها وكيَّفت نفسها في القالب الجديد للتمشي مع الإسلام الذي أزال الفوارق الطبقية وهدم أركان الإقطاع القديم بإشراك الفرد ليجني نصيباً من تعبه(١٣٣).

كل هذا يعطينا صورة واضحة عن هذه الدولة الإسلامية التي جمعت بين عناصر مختلفة عربية وحامية وشبه زنجية، وما صحب هذا الجمع من اختلاط التقاليد(١٣٤)

أما لماذا سقطت هذه الدولة على يد الباشوات الأتراك، سنة ١٨٢١م فيحتاج منا إلى دراسة أخرى إن شاء الله.

ثبت بأهم المراجع والمصادر

● المصادر والمراجع العربية ●

١ ــ آرنولد (السيرتوماس آرنولد) : الدعوة إلى الإسلام ــ ترجمة الدكتورين حسن إبراهيم حسن وعبدالمجيد عابدين، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٢م.

٢ ــ بتلر (الفريد د. بتلر) : فتح العرب لمصر، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣٣م.

٣ ــ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر، ت ٢٧٩هـ) : فتوح البلدان، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م.

٤ ــ ابن تغري بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى الأتابكي، ت ٨٧٤هـ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، مطبعة النيل ١٣٢٥هـ.

٥ ــ ابن جبير (أبو القاسم محمد بن أحمد، ت، ٦١٤هـ) : رحلة ابن جبير، بيروت، دار التراث، ١٩٦٨م.

٦ ــ حسن أحمد محمود (دكتور) : الإسلام والثقافة العربية في أفريقية، القاهرة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٣م، الجزء الأول.

٧ ــ الشاطر بصيلي عبدالجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٥م.

٨ ــ شبيكة (الدكتور مكي شبيكة) : أ = مملكة الفونج الإسلامية، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٣م.

٩ ــ شبيكة (الدكتور مكي شبيكة) : ب = السودان عبر القرون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والطباعة والنشر، ١٩٦٤م.

١٠ ــ شلبي (الدكتور أحمد) : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٢م، الجزء السادس.

١١ ــ شوقي (الدكتور شوقي الجمل) : تاريخ سودان وادي النيل ــ حضارته وعلاقاته بمصر منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩م، الجزء الأول.

١٢ ــ ابن عبدالحكم (أبوالقاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكيم بن أعين، ت ٢٥٧هـ) : فتوح مصر وأخبارها، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٢٠م.

١٣ ــ عبدالمجيد عابدين (دكتور) : تاريخ الثقافة العربية في السودان، القاهرة، مطبعة الشبكشي بالأزهر، ١٩٥٣م.

١٤ ــ القلقشندي (الشيخ أبوالعباس أحمد القلقشندي، ت ٨٢١هـ) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م، ١٤ جزء.

١٥ ــ كاتب الشونة (أحمد بن الحاج أبوعلي، ولد سنة ١١٩٩هـ) : تاريخ ملوك السودان، تحقيق ونشر الدكتور شبيكة، الخرطوم، من منشورات كلية غوردون التذكارية (جامعة الخرطوم الآن)، ١٩٤٧م.

١٦ ــ محمد شفيق غربال - ناشراً : جون لويس بوركهارت، رحلاته في بلاد النوبة والسودان ــ ترجمة فؤاد اندراوس ــ القاهرة، نشر محمد شفيق غربال، ١٩٥٩م.

١٧ ــ محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٥م.

١٨ ــ مصطفى محمد مسعد (دكتور) : الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م.

١٩ ــ المسعودي (أبوالحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ت ٤٣٦هـ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة، دار الرجاء للطبع والنشر، ١٩٣٨م.

٢٠ ــ المقريزي (تقي الدين أبوالعباس أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ) : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت.

٢١ ــ نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧م، ثلاثة أجزاء.

٢٢ ــ النويري (شهاب الدين أحمد، ت ٧٣٣هـ) : نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية، رقم ٥٥١ معارف عامة، القسم الثاني من الجزء الثامن والعشرين.

٢٣ ــ ود ضيف الله (محمد ضيف الله بن محمد الجعلي الفضلي) : ت ١٢٢٤هـ، طبقات الأولياء والصالحين والشعراء، القاهرة، المطبعة المحمودية التجارية ١٣٤٩هـ.

٢٤ ــ اليعقوبي (أحمد بن يحيى بن أبي يعقوب بن واضح، ت ٢٩٢هـ) : البلدان، العراق، المكتبة المرتضوية، ١٩١٨م.

● المراجع الأفرنجية ●

٢٥ ــ .Trimingham, J.S.: Islam in the Sudan, (Oxford 1949)

٢٦ ــ .Crawford, O.g.s.: The fung Kingdom of Sinnar, (Gloucester 1951)

● الهــوامـــش ●

(١) انظر في هذا: الدكتور شوقي الجمل : تاريخ سودان وادي النيل ــ حضارته وعلاقاته بمصر من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر، ج١، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٩م، الدكتور مكي شبيكة: مملكة الفونج الإسلامية، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٣م، ص ص ٥ ــ ٦.

(٢) انظر مثلا: مملكة الفونج الإسلامية، المرجع نفسه، ص ٦.

(٣) عن ظروف تأسيس هذه العاصمة ــ مروي وسقوطها، انظر: المرجع نفسه ص ص

٥ ـــ ٧، الدكتور أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج٦، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٢م، ص ١٤٥، الشاطر بصيلي عبد الجليل : تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للمكتبات ١٩٧٢م، ص ص ٧٨ ـــ ٨٠.

(٤) عن الموقع الجغرافي لهذه الدويلات الثلاث، أنظر الخريطة المرفقة. وعن ظروف قيامها، انظر مثلاً: الدكتور مكي شبيكة : السودان عبر القرون، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والطباعه والنشر، ١٩٦٤م، ص ص ١٢ ـــ ١٣، الدكتور مصطفى محمد مسعد: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٠م، ص ص ٥٦ ـــ ٦٧، الدكتور شلبي: الموسوعة، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٤.

(٥) انظر : نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٧م، ص ٣٦٢ وما بعدها.

(٦) انظر : المسيوجيان (ربان سفينة) : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية، تعريب يوسف كمال، القاهرة، لم يذكر الناشر، ١٩٢٧م.

(٧) عن فتح مصر وبلاد النوبة (السودن)، انظر : ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ليدن، ١٩٢٠، ص ١٦٩ وما بعدها، البلاذري : فتوح البلدان، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٥٦م، ص ٢٨٠، وما بعدها.

(٨) انظر: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، مصر، المطبعة البهية المصرية، إدارة الملتزم، ١٣٤٦هـ، ص٢٤٧.

(٩) انظر : فتوح مصر لابن عبد الحكم، ص ص ١٨٨ ـــ ٨٩، النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية، معارف عامة ٥٥١، القسم الثاني من الجزء الثامن والعشرين، ص ص ٣٤٨ ـــ ٤٩، القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج ٥، القاهرة، المطبعة الأميرية، ١٩١٥م، ص ٢٧٥، المقريزي : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج١، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت، ص ص ١٩٩ ـــ ٢٠٠.

(١٠) انظر : فتح العرب لمصر، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٨.

(١١) انظر : اتفاقية البقط عند المقريزي، المواعظ والاعتبار، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٩٩ ـــ ٢٠٠.

(١٢) عن أثر هذه المعاهد في تغلغل الإسلام إلى السودان، انظر: الدكتور حسن أحمد محمود:

الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، ج١، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٣م، ص٣١١، Trimingham, J.S.: Islam in the sudan (Oxford, 1949), P.24.

(١٣) مما يدل على كثرتهم في الجيش وثورتهم الشهيرة في عصر صلاح الدين الأيوبي، إثر مقتل (مؤتمن الخلافة) النوبي، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً. انظر ذلك عند الدكتور عبد اللطيف حمزة: صلاح الدين بطل حطين، القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٧٢م، ص ٣٦ وما قبلها وما بعدها.

(١٤) انظر: صبح الأعشى، ج٥، سبق ذكره، ص ٢٧٦، العمري : التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، بدون ناشر، ١٣١٢هـ، ص ٢٨.

(١٥) انظر: الإسلام والثقافة العربية في إفريقية، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٢.

(١٦) انظر القلقشندي، ج٢، مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٨.

(١٧) انظر: المرجع السابق، ص ص ٣٢٢ ــ ٢٣.

(١٨) الإسلام والنوبة، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٩١ ــ ١٩٢.

(١٩) انظر : Trimingham, J.S. : OP. cit., P. 71.

(٢٠) عن توزيع القبائل العربية في السودان، راجع، عبد المجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان، القاهرة، مطبعة الشبكشي، ١٩٥٣م، ص ١ وما بعدها. وعن ظاهرة المصاهرة بين العرب المسلمين والسكان المحليين راجع: الإسلام والنوبة، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٩٢ ــ ٢٠١.

(٢١) انظر: اليعقوبي : البلدان، العراق، المكتبة المرتضوية، ١٩١٨، ص ٩٥، الدكتور محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الإفريقية، مرجع سبق ذكره ص ٢٥٨، القلقشندي : صبح الأعشى، ج٥ مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٣، ابن جبير : الرحلة، بيروت، دار التراث، ١٩٦٨ ص ص ٤٣ ــ ٤٤ جغرافية وتاريخ السودان، مرجع سبق ذكره ص ٣٧٩، الجمل، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤١.

(٢٢) انظر: الشعوب والسلالات، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٥، ٣٢٢، ٣٢٤.

(٢٣) شقير، مرجع سبق ذكره، ج٢ ص ١٠٣.

(٢٤) انظر تفاصيل ذلك عند : الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل مرجع سبق ذكره، ص ٥١، مسعد، الإسلام والنوبة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٢.

(٢٥) انظر في هذا الجانب: توماس ارنولد: الدعوة إلى الإسلام ــ ترجمة د. حسن إبراهيم وآخرين ــ القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧١م ص ١٣١ وما بعدها.

(٢٦) انظر في هذا : الإسلام والنوبة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٢.

(٢٧) انظر: شقير، مرجع سبق ذكره، ص ٧٢.

(٢٨) الإسلام والنوبة، ص ٢٠٩.

(٢٩) اختلف الباحثون في أصلهم، فذهب البعض إلى أنهم من زنوج الشلك من جنوبي السودان، وقال آخرون بأنهم من البرنو بوسط إفريقية، وقال فريق ثالث بأنهم عرب أمويون. وقد رجح الدكتور محمد صالح محيى الدين أنهم من العرب... أنظر كتابه : مشيخة العبدلاب وأثرها في حياة السودان السياسية ط ١ رسالة ماجستير منشورة ــ بيروت، دار الفكر، ١٩٧٢م، ص ص ١٢٧ ــ ١٣٣، وانظر معه آركل : تاريخ السودان (بالانجليزية)، ص ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧، الشاطر بصيلي، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٠٨ ــ ٢٤٣، الإسلام والنوبة، ٢٠٧، حسن محمود، مرجع سبق ذكره ص ص ٣٢٣ ــ ٣٤٧، تاريخ الثقافة العربية في السودان، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٦ ــ ٥١... الخ.

(٣٠) عرف القواسمة في التاريخ السوداني بالعبدلاب نسبة إلى عبد الله جماع المذكور، وهم من العرب... وعن أصلهم وموطنهم الأول انظر: الدكتور محمد صالح محيي الدين : مشيخة العبدلاب، المرجع السابق ص ص ١٠٨ ــ ١٢٧.

(٣١) محمد بن ضيف الله بن محمد الجعلي الفضلي، المشهور بـ «ود ضيف الله» : الطبقات، القاهرة، المطبعة المحمودية التجارية، ١٩٧٣م ص ٥.

(٣٢) معنى كلمة أربجي باللغة النوبية «بلد العرب»، انظر: محمد متولي بدر : اللغة النوبية، نقلاً عن : مملكة الفونج الإسلامية، ص ٢٢.

(٣٣) المصدر السابق، ص ٥.

(٣٤) أحمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان، نشر الدكتور شبيكة، الخرطوم، ١٩٤٧، ص ١ (تتناول هذه المخطوطة تاريخ دولة سنار الاتحادية منذ قيامها إلى ما بعد العهد التركي ــ المصري سنة ١٨٣٨م. وقد تناول بعض الباحثين المخطوطة بالتنقيح والحذف والإضافة حتى وصلت الأخيرة منها إلى عهد ممتاز باشا مدير برقبلي السودان قام بنشر نسخة من المخطوطة المعدلة الدكتور مكي شبيكة، وقام بنشر النسخة الأصلية الأستاذ الشاطر بصيلي عبد الجليل.

(٣٥) انظر : مملكة الفونج، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦.

(٣٦) كاتب الشونة، المصدر السابق، ص ٢.

(٣٧) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣، انظر :

الدكتور نسيم مقار، الرحالة في السودان، القاهرة ١٩٦١م، الناشر : مطبعة البيان العربي، ص ٣٢ ــ فيه يتحدث عن أهمية هذه المنطقة اقتصادياً.

(٣٨) الشاطر، تاريخ وحضارات، مرجع سبق ذكره، ص ٢٤٨.

(٣٩) نفس المرجع، ص ٢٤٨.

(٤٠) مجلة «الخرطوم»، العدد الثالث، السنة السادسة، يناير ١٩٧٤م، الناشر: المجلس القومي للآداب والفنون بوزارة الإعلام السودانية، مقال لصلاح محيي الدين، ص ١٢٨.

(٤١) انظر: نص الوثيقة في : مشيخة العبدلاب، للدكتور محمد صالح محيي الدين،مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٦٨ ــ ٤٧٠، الملحق الثاني.

(٤١) نفس المصدر، ص ١٣٣، وكذلك انظر : د. محمد صالح محيي الدين : مشيخة العبدلاب وأثرها في حياة السودان السياسة، بيروت، دار الفكر، الخرطوم الدار السودانية، ط١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص ٦٢، دور الأزهر في السودان، ص ٢٠.

(٤٢) إحدى كبرى قبائل جنوبي السودان.

(٤٣) الدكتور حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥٣.

(٤٤) نفس المرجع، ص ٣٥٣، نعوم شقير، ص ٨١، أحمد كاتب الشونة، ص ٦.

(٤٥) مجلة الخرطوم، مقال صلاح محيي الدين، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٨.

(٤٦) الدكتور إبراهيم عبده: في السودان، القاهرة، لم تذكر سنة الطبع، الناشر دار مجلتي للطباعة والنشر، ص ٢٨.

(٤٧) المتصفح لكتاب الطبقات عن أخبار الأولياء والصالحين في هذه الدولة يرى مدى التغلغل الصوفي في المجتمع السوداني في ذلك العصر، وإن السيادة الروحية كانت لهؤلاء الأولياء والصالحين.

(٤٨) الدكتور حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٥٣ ــ ٣٥٤.

(٤٩) الدكتور شبيكة، مملكة الفونج، مرجع سبق ذكره، ص ١١٦ ــ ١١٧.

(٥٠) من أولئك الشيخ إدريس ود الأرباب حين توسط في إعادة العلاقة بين الفونج والعبدلاب بعد هزيمة العبدلاب في عهد الشيخ عجيب المانجلك انظر مجلة الخرطوم، ص ١٣٧.

(٥١) الشاطر، تاريخ وحضارات..، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٨.

(٥٢) Trimingham, J.S.: Islam in the sudan, OP. cit., P.195

(٥٣) الدكتور عبد المجيد عابدين، مرجع سبق ذكره، ص ٦٣.

(٥٤) الدكتور مصطفى مسعد، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٨.

(٥٥) قدل، يقدل.... الخ، كلمة عامية بمعنى يمشى مشية فيها شيء من الخيلاء.

(٥٦) الطبقات، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩.

(٥٧) الطبقات، ص ١٥٠.

(٥٨) الدكتور مسعد، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٩، نقلاً عن عبد العزيز عبد المجيد، التربية في السودان، ص ٢٣٤.

(٥٩) نفس المرجع، ص ٢١٩، نقلاً عن الدكتور محمد عوض محمد، السودان السماتي ص ص ١٧ — ١٨.

(٦٠) الدكتور حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٨.

(٦١) الدكتور شبيكة : السودان عبر القرون، ص ٧٧.

(٦٢) الدكتور مسعد، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٢. وانظر : محمد سليمان، دور الأزهر في السودان، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٦ — ٣١.

(٦٣) انظر الطبقات، ص ٥.

(٦٤) هو محمد بن حسن بن علي بن عبد الرحمن المصري المالكي اللقاني، نسبة إلى لقانة من قرى محافظة البحيرة المصرية. كان هو وأخوه ناصر الدين (محمد بن حسن) من كبار المالكية بمصر، اشتغلا بالتدريس والإفتاء والتأليف، حتى غدت لهما شهرة في جميع أقطار العالم الإسلامي في ذلك الحين، لا سيما في المغرب وأفريقية.

(٦٥) انظر: أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج، مخطوط، ورقات من ٣٠٩ — ٣١٣.

(٦٦) الطبقات، ص ٥.

(٦٧) كان البنوفرى من كبار علماء مصر. تتلمذ على ناصر الدين اللقاني وغيره من أئمة المالكية بمصر حتى غدا إماماً فيه وتتلمذ عليه أبو زيد عبد الرحمن بن علي الأجهوري وسالم السنهوري من علماء المالكية بمصر، نحو سنة ٩٩٨هـ/١٥٩٠م انظر: محمد المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، القاهرة، ٣/١٥٧،٢/٢٠٤.

(٦٨) مختصر في المشهور من فقه الإمام مالك مجرداً من الخلاف ومؤلفه هو الشيخ خليل ابن إسحاق بن موسى بن شعيب المعروف بـ «الجندي» لأنه كان يرتدي زي الجندية وهو يمارس التدريس، ويرتزق على الجندية. حامل لواء المذهب المالكي في زمانه بمصر، مات مجاوراً بالمدينة المنورة سنة ٨١٨هـ/١٤٥١م.

انظر : نيل الابتهاج، الورقات ٨٠ — ٨٣، التلمساني : أبو عبد الله محمد بن أحمد :

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، الجزائر المطبعة الثعالبية، ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، ص ص ١٩٦ ــ ٩٧.

(٦٩) الطبقات، ص ١١١.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(٧١) المصدر والمكان نفسهما.

(٧٢) المصدر نفسه، ص ص ١٠١ ــ ١٠٣.

(٧٣) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٧٤) المصدر نفسه، ص ٣٧.

(٧٥) انظر كل هذا في ترجمة الشيخ أرباب، المصدر نفسه، ص ٣١.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٧٧) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ٢٢.

(٧٩) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(٨٠) المصدر نفسه، ص ١١٤.

(٨١) المصدر نفسه، ص ٧١.

(٨٢) انظر: محمد سليمان، دور الأزهر في السودان، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م، ص ٣١.

(٨٣) انظر الطبقات، ص ٦، الدكتور مسعد، ص ص ٢١٢ ــ ٢١٣.

(٨٤) انظر : الطبقات، ص ٣١.

(٨٥) هو سالم بن محمد عز الدين بن محمد بن ناصر الدين أبو النجا السنهوريّ المالكي، إمام المالكية في زمانه بمصر. عاش بين سنتي ٩٤٥ هـ و ١٠١٥هـ/١٥٣٨م و١٦٠٦م، انظر في : خلاصة الأثر، مرجع سبق ذكره، ٢٠٤/٢.

(٨٦) هو والد الشيخ عبد الباقي الزرقاني، شارح مختصر خليل في الفقه المالكي.. انظر: خلاصة الأثر، ٢٨٧/٢.

(٨٧) هي مختصر في فقه المالكية، ومؤلفها هو أبو محمد عبد الله بن أبي زيد بن عبد الرحمن القيرواني النفزاوي (٣١٦ــ ٣٨٦هـ أو ٣٩٠هـ). أشهر علماء المالكية في المائة الرابعة الهجرية. (انظر: الشيخ محمد النيفر : عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب ، ط ١ ، تونس المطبعة التونسية ، ١٣٥١هـ ص ٣٤ .

(٨٨) يبدو أن الإشارة هنا إلى عقائد السنوسي ــ محمد بن محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي ــ وهي العقيدة الكبرى والوسطى والصغرى في التوحيد، وردت الإشارة في الطبقات إلى العقيدة الكبرى باسم «كبرى السنوسية» وإلى الوسطى باسم وسطى السنوسية، وأحياناً تأتي الإشارة فقط بكلمة «السنوسي» أو السنوسية.. وعن ترجمة السنوسي وكل كتبه انظر : نيل الابتهاج، الأوراق ٢٩٥ ــ ٣٠٢، البستان، ص ص ٢٣٧ ــ ٢٤٨.

(٨٩) ومن كتب النحو التي ورد ذكرها في الطبقات: الأجرومية لمحمد بن محمد بن داود الصنهاجي المعروف بابن أجروم (٦٨٢ ــ ٧٢٣هـ/١٢٨٣ ــ ١٣٢٣م). انظر: تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان القاهرة، دار الهلال ١٩٥٧، ١٥٦/٣.

(٩٠) الطبقات، ص ٣١.

(٩١) نفس المصدر، ص ٣٢، (وله مؤلفات منها : شرح العقيدة المنظومة في فن التوحيد، وهي أوسع من شرح التفتازاني على العقائد النسفية، انظر محمد سليمان، ص ٣٣.

(٩٢) نفس المصدر، ص ١٦٥.

(٩٣) المصدر نفسه، ص ٥.

(٩٤) إن مصر ما تزال ذلك المنبع حتى اليوم. إذ أن، جل موجهي الثقافة الإسلامية سواء على النطاق الرسمي أو الشعبي من خريجي الأزهر من مدرسين وقضاة ووعاظ وإعلاميين وحملة الثقافة الإسلامية في جميع المجالات.

(٩٥) الطبقات، ص ١٦٩.

(٩٦) مجلة الخرطوم، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٨ ــ ٢٩.

(٩٧) الدكتور/ عبد المجيد عابدين، مرجع سبق ذكره، ص ٥٦.

(٩٨) نفس المرجع، ص ٥٧. أسست هذه السلطنة سنة ١٦٤٠م، بلغت أوج مجدها في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين
انظر : محمد سليمان : دور الأزهر في السودان، مرجع سبق ذكره، ص ص ٤٤ ــ ٤٨.

(٩٩) انظر في ذلك مثلاً بحثنا: «دور العلاقات التجارية في دخول الإسلام إلى إفريقية الغربية، رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة الأزهر/ كلية اللغة العربية/ قسم التاريخ والحضارة الإسلامية.

(١٠٠) انظر، الشاطر، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٦. وتقلى إحدى ممالك السودان الإسلامية، تقع شرقي جبال النوبة بغربي السودان، نشأت نحو سنة ١٥٦٠م.

(١٠١) انظر : الطبقات، تحقيق د. يوسف فضل، ط٢، ١٩٧٤، ص ٩٢ هامش رقم ١٣.

(١٠٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٨.

(١٠٣) انظر : جون لويس بوركهارت : رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان (ترجمة فؤاد اندراوس، القاهرة، نشر محمد شفيق غربال، ١٩٥٩م، ص ص ٢٠٥ ــ ٢٠٦.

(١٠٤) انظر تفاصيل ذلك في:

(١٠٥) رحلات بوركهارت، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٤ وما بعدها، انظر: الشاطر، تاريخ وحضارات...، ص ٢٨٥ عن أهمية التجارة في علاقة الزعامة المحلية وقيام هذه الدويلات.

(١٠٦) الدكتور الجمل، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠٤.

(١٠٧) الدكتور الجمل، مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٠٠/٣٠١.

(١٠٨) الدكتور عبد الرحمن زكي، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقية، القاهرة، لم تذكر السنة، الناشر : مطبعة يوسف، ص ٣٣.

(١٠٩) مجلة الخرطوم، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٢.

(١١٠) تطلق كلمة فكي في السودان على رجال الدين، وربما يقابل هذا اللقب، لقب «مطوع» في المملكة العربية السعودية.

(١١١) الدكتور عبد المجيد عابدين مرجع سبق ذكره، ص ١٣٥.

(١١٢) .Trimingham,J.S.: Islam in the Sudan, OP, cit, P. 103:

(١١٣) انظر الشاطر، تاريخ وحضارات..، ص ٢٦٢ يذكر الاسم «قيلى» وعلى كل حال فالاسمان موجودان في السودان، وربما كان الالتباس من ترجمة انجليزية، لأن القاف والجيم في الانجليزية واحدة.

(١١٤) انظر نفس المصدر السابق ص ٢٦٢.

(١١٥) الدكتور عبده بدوي: مع حركة الإسلام في إفريقية، القاهرة ١٩٧٠م الناشر: الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ص ص ١٣٦ ــ ١٣٧. ولمعرفة دور هذه الدولة في الحياة الإسلامية، انظر الصفحات التي تلي ص ص ١٣٦ ــ ١٣٨،
انظر: الدكتور عبد المجيد عابدين، مرجع سبق ذكره ص ص ٤٣ ــ ٤٤.

(١١٦) انظر ذلك في الطبقات، ونيل الابتهاج وحسن المحاضرة.

(١١٧) انظر، الطبقات، ص ٥.

(١١٨) الشاطر، تاريخ وحضارات...، مرجع سبق ذكره، ٢٥٠.

ومن الملاحظ هنا أن الشاطر يعزو عادة الزواج بدون عدة إلى أنها من العادات الموروثة وليست من الجهل بالدين فقط وبذلك يكون قد خالف رأي صاحب الطبقات ومن تبعه، ويرجع العادة إلى حياة الموانيء حيث يخرج الرجال في أعمالهم البحرية ويغيبون عن بلدهم فترات طويلة لا تمكنهم من الانتظار لقضاء العدة منهن لذلك يعقدون زواجهم في نفس اليوم الذي تطلق فيه الزوجة من زوجها السابق، وقد انتقلت هذه العادة مع غيرها إلى حوض النيل الأزرق مع المهاجرين الذين جاءوا من ساحل إفريقية الشرقي حيث كانت تمارس هذه العادة وبخاصة في ميناء، لا جو التي كانت أكثر نشاطاً في الملاحة من غيرها من الموانىء الأخرى ومن هامش كتاب الشاطر يبدو أنه يؤمن برأي شخص اسمه Prinns في كتابه: (THE SWAHILI SPEAKING PEOPLES).

(١١٩) شراب سوداني مسكر في الغالب.

(١٢٠) تصغير كلمة «طنبور» وهي آلة موسيقية شعبية خاصة في السودان الشمالي.

(١٢١) التبغ.

(١٢٢) السيجار.

(١٢٣) كلمة عامية بمعنى «تلدغك» والملاحظ ان هذا شعر شعبي عامي.

(١٢٤) هو أحد أساتذة المهدي الصوفيين، انظر حسب الله، مرجع سبق ذكره ص ٢٥١.

(١٢٥) الشاطر بصيلي، تاريخ وحضارات، ص ٢٥١.

(١٢٦) الدكتور حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٢، نعوم شقير، ج٢ مصدر سبق ذكره، ص ٩٨.

(١٢٧) الدكتور حسن محمود، المرجع السابق، ص ٣٦٣.

(١٢٨) لفظ محلي معناه مقعد على شكل معين، وفي الغالب من قطعة خشب واحدة.

(١٢٩) نفس المرجع، ص ٣٦٣ نقلاً عن محمد عوض «السودان الشمالي»، ص ٢١٩.
انظر، الشاطر، المعالم، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢.

(١٣٠) الدكتور حسن محمود، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٤.

(١٣١) نفس المرجع، ص ٣٦٢، اقتباساً من الشاطر (المعالم) ص ص ١١١ ــ ١١٩، والذي بدوره شرح ذلك مقتبساً من كاتب الشونة.

(١٣٢) الشاطر، تاريخ وحضارات، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧.

(١٣٣) نفس المرجع، ص ص ٢٧٢ ــ ٢٧٣.

(١٣٤) للاستزادة، انظر نفس المرجع، ص ص ٢٧٣ ــ ٢٨٢.